

هذه سطور قليلة من أنشودة ، أو قصيدة طويلة تعد هذه البكائية تنويعات عليها • ولعل هذه الأنشودة أو الحوارية أن تكون أقدم مرثية عرفها العالم • انها مناجاة رجل تعب من الحياة فراح يحاور نفسه التي تقنعه بالتمسك بدنياه – دنياه التي يثس منها بعد أن اختلت فيها كل الموازين وانقلبت كل القيم – بينما أخذ يحن الى العدالة والحقيقة والسلام في أخراه • وهى نص مصرى قديم حققه وترجمه أكثر من عالم من علماء التاريخ والأدب القديم (مثل ارمان وزيته وفولكنر وسليم حسن) وأعطوه هذا العنوان : حوار متعب من الحياة مع نفسه ، وحددوا عصره بفترة الثورات والاضطرابات التي جاءت بعد الدولة القديمة • ومع أننا لانستطيع أن نصف هذا الحوار الشعري بأنه مرثية أو بكائية بالمعنى الذى عرف فيما بعد ، فانه يعد قطعة من أصدق الشعر وأنبله ، وأشدّه تأثيرا على القلب •

غير أن المرثية أو البكائية قد عرفت في الشعر اليوناني والروماني القديم لتدل على شكل شعري يتألف من بينين (كوبليه) يجرى أولهما على الوزن السداسى وثانيهما على الوزن الخماسى ، ويعبر منذ القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد عن أغراض متنوعة كالحرب والحب والبطولة والسخرية السياسية قبل أن يطلق الاسم المحدد (اليجوس أو اليجابا) على الحداد على ميت أو الشكوى من فواجع الحياة والتأمل فى مآسيها ، وقد يتسع فيشمل قصائد الحب كما حدث فى العصر السكندري والروماني والبيزنطى ، ويظل الحب والشكوى طابعه فى الشعر اللاتينى – خصوصا فى عصر أغسطس – عند تيبولوس وبروبريتوس وأوفيد •

ولم تقتصر محاكاة الغربيين المحدثين منذ عصر النهضة لأنواع الشعر القديم وأوزانه على هذا الشكل الثنائى للمرثية ، وانما امتدت الى مضمونها الذى يعبر عن الأسى والحسرة والاكتئاب • ففي ايطاليا نجد المرثية منذ القرن السادس عشر عند « تاسو » و « أريوستو » حتى القرن التاسع عشر والعشرين عند ليوباردى وكاردوتشى وداتزيو ، وفى أسبانيا التى قلد شعراؤها النماذج الايطالية يتصل هذا الشعر من جارتىلا زودى لافيجا ولوب دى فيجا حتى خيمينيث وجارتىلا لوركا ، وفى فرنسا يتصرف بعض الشعراء فى الشكل الأصيل وان ظلوا محافظين على المحتوى والنغم الأسيان، بدءا من جان دوبليه ورونسار حتى لامارتين فى تأملاته وأندريه سنيبييه(*)

(*) نذكر مما قاله عن المرثية هذه الأبيات الدالة : لكى نقتننى المرثية الرقيقة بجانها الذى يلمس القلب – المرثية ذات النسيج المنقطع – ذات الضحكات المنزحة بالدموع – ذات الشعر الطويل المنثور – تلك الجميلة التى ترفع للسما نظرات مبتلة •